التفسير العلمي للآيات الكونية تاريخه - مواقف العلماء منه

د. بكر زكي عوض
الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

إذا فقدت المعايير وألغيت القواعد اختلت نتائج العمل، وبمثل ما أسرف بعض السابقين في علم التفسير أسرف بعض اللاحقين، وإذا كان حق فهم النص القرآني وتدوين ذلك الحق متاحاً لكل مسلم استوفى شروط المفسر فان من المسلمين من ولج الباب بلا روية بدعوى التفسير العلمي فكتب مستَحْسَناً أو مستَهْجَناً، ومنهم من أبى النظر في الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث لعلل شتى فعطلوا النصوص الداعية إلى التفكير، ومنهم من توسط في موقفه سواء فسر أم لم يفسر.

وهذا ما يكشف عنه البحث

والله من وراء القصد،،،

(الآيــات الكونيــة زمــن النبــوة)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم اللأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد :

فقد شـاءت إرادة الله أن لا يبقى مـن معجزات الرسـالات السابقـة على الاسلام إلا ذكراها لكونها معجزات حسية، ولذلك لا يعتمد أهلها عليها في الدعوة إلى رسالتهم بقدر ما يعتمدون على الحيل وخوارق العادات، ولما كانـت معجزة الرسول عليه السلام - التي تحدى بها الإنس والجن عقلية . وقد تعهـد الله بحفظها في كتابه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) . فقد شاءت إرادته أن تبقى معجزة الاسلام قائمة منذ نزولها على النبي - عليه السلام - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يتحـّدى بها جملة وتفصيلاً عبر الزمان والمكان (٢) .

وقد وردت آيـات في القرآن تتحدث عـن مصدره ومنزلته وطبعـه وغايته وعنـاية الله به، وكذلك عناية الرسول - عليـه السلام - من حيث التلقى وتعجل الحفظ والتبليغ على عجل على أثر نزول الآية أو السورة أو المعارضة مع جبريل ... الخ .

وصريح نصوص القرآن أن الأسلام عـالمي الزمان والمكان والانسان (٣) ، وأسـاس الدعوة إليه هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

وقد ترجم الـرسول (ﷺ) النصوص النظرية إلى سلوك عملي حتـى ورد في حقه أنه «كان قـرآنا يتحـرك» (٤) . وحسبنا أن الصلاة والصيـام والزكاة والحج قد فصلـت أركانها بالسلوك العملي له . وهذا البيان النبوي هو من باب العمل بالنص الشريف ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٥) . ولم يتوقف البيان على السلوك بل كان للقول حظه كذلك، فبعض النصوص قد اختلف في المراد منها بالنسبة للصحابة أو خفى المعنى، وكان الخفاء متعلقاً بمدلول كلمة أو بمعنى جملة أو لجهالة بقراءة، فقام الرسول بالبيان .

ورد انه سئل - عليه السلام - عن المغضـوب عليهم وعن الضالين فقال : المغضوب

---

(١) الحجـــر (٩) .
(٢) البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ ، يونس آية (٣٨) ، هـود آيـه (١٣) ، الاسـراء آيـة (٨٨) .
(٣) سورة سبأ آية (٢٨) ، الصف (٩) ، الفرقان (١) ، الأنبياء (١٠٧) ص (٨٧) ، يس (٦٩ , ٧٠) .
(٤) الحديث راجع باب (في حسن خلقه - عليه السلام) الوفا - لابن الجوزي ٢/ ٤١٥ ط دار الكتب الحديثة مصر .
(٥) النحـــل آيـــة (٤٤) .

عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى [1] . أما خفاء معنى الجملة فهو أوضح ما يكون في موقف الصحابة من قول الحق ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [2] .

فقالوا وأينا لا يظلم نفسه ؟ وقد شق ذلك عليهم حتى رأَوْا أنه لا منجاة لواحد منهم، فقال رسول الله - عليه السلام - أما قرأتم قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3] .

وإمّا لجهالة بالقراءة الثانية : فكلنا يعلم الحديث الذي رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب ذاكراً فيه إنكاره على هشام بن حكيم قراءة سورة الفرقان على حرف غير التي يقرأ بها، فأخذ بتلابيبه وذهب إلى الرسول - عليه السلام - فسمع من كليهما وفي كل يقول : هكذا أنزلت ثم قال رسول الله - عليه السلام - إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه [4] . وأحياناً كان رسول الله - عليه السلام - يفسر الآية ابتداء وغاية ما ينسب إلى الرسول نظرياً آيات معدودات علمهن إياه جبريل كما ورد في الحديث الشريف[5] .

وقد جمع السيوطي جملة ما ينسب إلى الرسول - عليه السلام - من تفسير[6] .

كما عقدت أبواب للتفسير في كتب السنة تبين تفسير الرسول - عليه السلام - لبعض الآي، وإن لم يتم الفصل في تلك الكتب بين ما فسره الرسول وبين ماهو سبب للنزول مما لا يعد تفسيراً وإن ساعد على التفسير . [7] ويلاحظ على جملة التفسير الذي نسب إلى النبي - عليه السلام - أنه متعلق بجوانب العقيدة والأحكام الشرعية والأخلاق .

ومع هذا قد كان للآيات الكونية في القرآن دورها في تحرير العقل المسلم من سلطان الخرافة حيث صرح القرآن بتسخير هذا الكون للانسان - وليس للمسلمين فقط - ثم خصص بعض أرجاء الكون بالذكر كتسخير الأرض ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ [8] ، وتسخير البحر ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ

(١) الاتقان ٢ / ٢٤٤ ، وابن كثير ١/ ٧ وقال عنه الترمذي حسن غريب .
(٢) الأنعام (٨٢) .
(٣) لقمان من الآية (١٣) وأنظر البخاري ٦/ ٧١ .
(٤) متن البخاري ٦/ ٢٢٧ .
(٥) أخرجه البزار منسوباً إلى عائشة ورده أبو حيان في البحر ١/ ١٣ والقرطبي ١/ ٣١ .
(٦) الإتقان : ٢ / ٢٤٤ : ٢٦٤ .
(٧) البخاري : ٦/ ٢٢٠ : ٢٢٣ ، مسلم : ٥/ ٨٦٧ : ٨٨٣ ، والترمذي : ٤ / ٢٧٥ وما بعدها .
(٨) الملك (١٥) .

مِنۡهُ حِلۡيَةً تَلۡبَسُونَهَا ﴾[1] . وتحدث عن تسخير الشمس والقمر في وقت كانا يعبدان فيه من قبل البعض ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[2] . وذكر حركتهما ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[3] .

كما تحدث عن تسخير النجوم وبين بعض فوائدها فقال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ ... ﴾[4] . ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾[5] ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ ... ﴾[6] .

ولم تتوقف نصوص القرآن الكونية عند هذا الحد، بل أشارت إلى قضايا علمية بأسلوب لا يُعْي العقل عن قبوله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾[7] ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ ﴾[8] . ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾ .

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[9] .

والدراسات الحديثة لتلك النصوص قد صرحت بأنها تضمنت قضايا علمية كقضية دوران الأرض حول نفسها وما ينتج عن تلك الحركة، مثل ذلك قوله تعالى ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ ﴾[10] . كذلك أشار القرآن إلى بعض الظواهر الجوية كالرياح والرعد والبرق والصواعق في بعض الآيات وتحدث عن آفاق أبعد من المرئي كالسموات السبع، وورود بعض النصوص بأسلوب لا يمنع من وجود مخلوقات غير الملائكة حية في عوالم أخرى ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ ﴾[11] ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾[12] .

---

(1) النحل آية (١٤). (2) ابراهيم (٣٢). (3) يس (٣٨ - ٤٠).
(4) النحل آية (١٢). (5) النحل آية (١٦). (6) الصافات الآيات (٦، ٧، ٨، ٩).
(7) الفرقان (٦٢). (8) الزمر آية (٥). (9) القصص آيتي (٧١ : ٧٢).
(10) المعارج . (11) الشورى آية (٢٩). (12) النحل (٣٤٩).

كما أشار القرآن إلى قضايا تتعلق بالأرض كوجود طبقات بها وتفاوت بين تربتها ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ (١)، وكذلك الجبال ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ... ﴾ (٢) فضلاً عن كونها «أوتاداً» و «رواسي» وكونها تتحرك ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ (٣).

كما وردت نصوص عدة تتحدث عن أطوار خلق الانسان الأول «آدم عليه السلام» وأطوار خلق الانسان الثاني (سائر بنيه) في وقت لم يسمع فيه بمراحل الخلق الثاني بهذه الصورة ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ... ﴾ (٤) كما تناول بعض الجوانب بالذكر على سبيل التخصيص ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ... ﴾(٥)، وحديثه عن البنان ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ (٦) وعدم تطابق الألوان والأصوات ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (٧).

ومع هذا فقد كان حظ الآيات الكونية من تفسيره عليه السلام غاية في الندرة - لا تقصيراً منه - بل لخصوصية أسلوب القرآن في الكونيات حيث وردت الآيات بخصوصية لم يعرفها البشر في صيغ الخطاب ألا وهي صلاحية التعبير لأن يَفْهَم منه كل مستمع شيئاً ما.

فرغم وصول عدد الآيات الكونية في القرآن إلى سبعمائة آية فأكثر تفاوتت من حيث تناولها لجوانب الكون (السماء ببعض كواكبها ونجومها والظواهر الجوية والأرض وما يلحق بها من بحار وجبال ومناخ وزلازل ... الخ)، وكذلك الانسان من ناحية الخلق والتكوين (الأول والثاني) إلا أننا لم نجد أحداً من الصحابة قد سأل الرسول - عليه السلام - عن شيء من ذلك.

وغاية ما ذكره القرآن عنهم في هذا الميدان أنهم كانوا يسألون عن الحكمة من بعض الظواهر كما ورد ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (٨) وغاية ماورد في

(١) الرعد (٤). (٢) فاطر آية (٢٧).
(٣) النمل (٨٨)، النبأ (٧) وكونها رواسي في الرعد (٣) والحجر (١٩) والنحل (١٥) والأنبياء (٣١) والنمل (٦١) ولقمان (١٠) وفصلت (١٠) وق (٧) والمرسلات (٢٧).
(٤) المؤمنون (١٣، ١٤) واقرأ سورة الحج آية (٥). (٥) النحل (٧٨). (٦) القيامة (٤).
(٧) الروم (٢٢). (٨) البقرة (١٨٩).

السنة بعض أحاديث على أثر سؤال اليهود للرسول - عليه السلام - عن الرعد والبرق والصواعق. أخرج الأمام أحمد والترمذي وصححه عن ابن عباس قال: أقبلت اليهود إلى النبي - عليه السلام - فقالوا أخبرنا عن الرعد ماهو؟ قال: ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله، قالوا فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوته. [1] وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن نجاد الأشعري قال: قال رسول الله (ﷺ) الرعد ملك يزجر السحاب والبرق طرف ملك يقال له روفيل. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ﷺ) قال: إن ملكاً موكل بالسحاب يلم القاصية ويلحم الرابية في يده مخراق فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت[2].

وأخرج الشيخان عن أبي ذر قال: سألت رسول الله - عليه السلام - عن قوله تعالى ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ قال مستقرها تحت العرش، وأخرجا عنه قال: كنت مع النبي (ﷺ) في المسجد عند غروب الشمس فقال يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت الله ورسوله أعلم قال: فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾[3].

وقد رأى أحد العلماء أن السبب في عدم تفسير الرسول - عليه السلام - للآيات الكونية في القرآن هو ضرب من الحكمة حيث قال: «لو أن رسول الله (ﷺ) فسر كونيات القرآن لجمد القرآن لماذا؟.

لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد أن يفسر رسول الله... فيقف الأمر عند ذلك... وتأتي المعطيات الجديدة وتأتي الكشوف الجديدة فلا تجد في القرآن عطاء... ولذلك فإن عدم تفسير الرسول الكونيات في القرآن هو تفسير لهذه الكونيات[4].

وهذا الرأي له ما يسعفه في فكر القدامى، الذين رأوا أن كل تفسير بعد تفسير الرسول - عليه السلام - هو ضرب من البدعة - كمن فسر المغضوب عليهم والضالين - بغير ما ورد عن الرسول.

---

(١) مسند أحمد ١/ ٢٧٤ والترمذي ك التفسير سورة ١٣ - ٤/ ٣٥٧.
(٢) الاتقان للسيوطي: ٢/ ٥٥٤.
(٣) البخاري: ٦/ ١٥٤.
(٤) معجزة القرآن للشيخ محمد الشعراوي: ٢ ٪ ١٤٩ بتصرف.

هكذا ذكر صاحب الاتقان [1]. ولذلك رد كثير من المفسرين كل رأي غاير ما أثر عن الرسول في هذا المقام [2].

ويبدو أن الحكمة في البلاغ قد اقتضت عدم بيان ذلك لأسباب عدة منها :

١ - أن النصوص في ظاهرها لا تصادم العقل بل إنها فهمت على المألوف اعتماداً على الهيئة الظاهرة.

٢ - أن البحث العلمي لم يرق إلى ما انتهى إليه اليوم.

٣ - مراعاة لمستوى العقول ومقتضى الأحوال تجلت الحكمة على لسان الرسول «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم» وفي رواية «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم» وقد ذكر البخاري عن علي رضى الله عنه أنه قال «حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله» [3].

وعن ابن مسعود رضى الله عنه « ما من رجل يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم» [4].

(التفسير العلمي للآيات الكونية بعد الرسول - عليه السلام)

لقد رأى الصحابة أنفسهم مسئولين - أمام الله - عن الدعوة الاسلامية بعد وفاة الرسول - عليه السلام - وقد تجلت تلك المسئولية في اتجاهين :

الأول : التعريف بالاسلام لمن كان حديث عهد به، والاجابة عن أسئلة هؤلاء.

الثاني : الدفاع عن الاسلام في وجه التيارات المعادية بكل صورة ممكنة.

وقد تمكن الصحابة من توسيع رقعة الديار الاسلامية، وقد تطلبت حركة التوسع تلك ضروباً من التخصص بين الصحابة، فمنهم من اشتغل بالفتوحات وقيادة الجيوش، ومنهم من اشتغل برواية الحديث، ومنهم من اشتغل بالتفسير أو الأحكام ... حتى عرف

(١) الاتقان : ٢/ ٢٢٥ : ٢٢٨.
(٢) روح المعاني : ١/ ٩٦.
(٣) متن البخاري : ١/ ٤٤ ك العلم ط الشعب.
(٤) فتاوى ابن تيمية : ١٣/ ٢٦٠.

البعض منهم بلون ما من ألوان المعرفة ...

كما كان لـدخول كثيريـن من غير العـرب في الاسلام دوره حيـث تطلب ذلـك منهم التعريف بـالقرآن تلاوة وتفسيراً، وبدأت الأسئلة تتـوارد حول بعض الآي أو الكلمات في القرآن وبخاصة الكونيات.

وقد كان لمسلمي أهل الكتاب دورهم في علـم التفسير وبخاصة الآيات التي لها صلة بقصص السـابقين من الأنبيـاء والمرسلين، وكذلك الآيـات الكونيـة التي لها صلـة بقضية الخلق، وقد زاد هـذا الاتجاه ونما في عهد التابعين، وكتب التفسير بالمأثور هـي خير برهان على ذلك، إلا أن بيـان الكونيات في هـذه الفترة لم ينل خصوصيـة من البيان عـن غيره من سائر الآيات. فقد اعتمد المفسرون على دلالة الكلمات في لغـة العرب سواء أصابت المعنى أم لا، بل إن مـن غرائب التفسير المنسـوب إلى بعض الصحـابة والتـابعين أن تفسر بعض الحروف المقطعة في فواتح السـور تفسيراً كونياً، أو تؤّل على غير ظاهرهـا، ومن يقف على تفسير (ق [1] – ن –) [2] يدرك ذلك.

« سئل ابن عمـر عن معنى قول الحق سبحـانه ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا ... ﴾ [3] قال له ائت ابن عباس فأتاه فسـأله فقال له كانت الأرض رتقا لا تنبت، وكانت السموات رتقا لا تمطر ففتق هذه بالزرع وهذه بالمطر.

واستشهد بأقوال العـرب في هذا المقام. فلما عاد الرجل وأخبر ابـن عمر قال الآن قد علمت أن هذا الرجل قد أوتي علما ... » [4].

كما نسـب إلى كثير مـن الصحـابـة والتـابعين تنـاولهم للـرعـد والبرق والصـواعـق والسحاب والجبال ... الخ بعض البيان المتعلق بتلك الكونيات.

---

(١) الطبري: ٢٦ / ٩٣ وابن كثير: ٤/ ٢٢١ والدر المنثور: ٦/ ١٠١.

(٢) ابن جرير: ٢٨ / ١٠ وابن كثير ٤ / ٤٠٠ والدر المنثور: ٦/ ٢٤٩.

(٣) الأنبيـاء: آيـة (٣٠).

(٤) ابـن كثيـر: ٣/ ١٧٧ والـدر المنثـور: ٤/ ٣١٧.

(حـركة الترجمة إلى العربية وأثرها في علم التفسير بخاصة)

لقد استجاب المسلمون الأولـون لدعوة الاسلام إلى العلم بكل مـا تحتمل الكلمة من معنى في إطار القيم الاسلامية، ولذلك ترجموا الفكر اليوناني والهندي والفارسي والروماني إلى اللغة العربية، وكـان لحركة الترجمة تلك أثرها في إثراء المعـرفة عند المسلمين، إلا أنه لم ينتفع بتلك المعارف إلا من أوتـى حظاً منها، وكانت نفسه تواقة إليهـا وتمتع بعقلية مرنة. وقد نتج عن حركة الترجمة تلك تياران :

الأول منهما : يرى أن لا حـاجة لتلك العلوم أو المعـارف بخاصة الحكميـة منها لأن القرآن بـه كل شـيء من العلـوم والمعارف معتمـدين في ذلـك على بعض الآيـات القرآنيـة والحديث النبوي وآثار الصحابة. قال تعالى ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ (١) وقوله ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ... ﴾ (٢)، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ... ﴾ (٣).

كما ورد في الحديث الشريف في حق القرآن « فيه نبأ مـا قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكـم » (٤) وقد روى عن ابن مسعود أنه قال : إذا أردتـم العلم فأثيروا القرآن فان فيه علم الأولين والآخرين، « كما روى عـن ابن عباس قوله : لو ضاع لي عقـالُ بعير لوجدته في كتاب الله تعالى » (٥).

وقد تأثر بهذا الاتجاه كثيرون عبر الزمن فادعـوا وجود أصول كافة العلوم والفنون في القرآن الكريـم، فمنهم من أجمل ومنهم من فصـل، ورائد هذه الحركة من حيـث التدوين الإمـام الغزالي : ذكـر في كتابـه « إحياء علـوم الديـن » قولـه : كل مـا أشكل على النظـار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففـي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها ... » (٦). كما تأثر بذلك أبو الفضل المرسى (٧)، أبو بكر بن العربي (٨)، السيوطي (٩) وغيرهم بعد.

الاتجاه الثاني : يـرى أهله وجـوب الانتفاع بتلـك العلوم والمعـارف لأن الاسلام لا يمنع من ذلك. مـع الدعوة إلى الانتفاع بكل علم يساعد على تفسير النـص القرآني بخاصة

---

(١) الأنعـام من الآيـــة (٣٨). (٢) النحـل من الآيــة (٨٩). (٣) الإســراء الآيــة (٩).
(٤) الحديث مسند أحمد ١ / ٩١ وأبو داود ك فضائل القرآن، رقم ١. (٥) الموافقات : ٣/ ٣٧٠ : ٣٧١.
(٦) إحيـاء عــلوم الديـــن : ١ / ٢٩٦. (٧) الإتقان : ٢/ ١٢٦ : ١٢٨.
(٨) الإتقـــان : ٢ / ١٣٨. (٩) الإتقـــان : ٢ / ١٢٩.

في مجال الكونيات. ولذلك رأينا أصحاب هذا الاتجاه يعـرضون عن الروايات التي نسبت إلى الصحابة والتابعين فيما يتعلـق بالكونيات. وخير مثال لذلـك تفسير الكشاف ومفاتيح الغيب.

(بداية التفسير العلمي للكونيات في القرآن الكريم)[1]

يرى كثيرون أن الأمام الرازي هـو صاحب الحق في هذا المجال، إلا أنه بـالرجوع إلى ما كتبه الغزالي يمكن القول بأنه صاحب الدعوة إلى التفسير العلمي في كتابيه « إحياء علوم الدين » وكتابه « جواهر القرآن » فبعد أن تحدث عن علوم الدين وطرق الانتفاع بها قال :- « ولعلك تقـول إن العلوم وراء هـذه كثيرة كعلم الطـب والنجوم وهيئـة العالم وهيئـة بدن الحيوان وتشريح أعضـائه ... هذه العلوم ما عـددناها وما لم نعـدها ليست أوائلها خـارجة عن القرآن ... ».

ثم ذكر بعض الآيات الكونية المتعلقة بالشمس والقمر والخسوف والكسوف وأتبعها بقوله : « ولايعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه، ولا يعرف كمال معنى قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[2] إلا من عـرف تشريح الأعضـاء من الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها ... ثم قال : وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين[3] وجملة آراء الغزالي موجزة في :

١ - وجود آيات كونية في القرآن تبلغ حداً من الكثرة.

٢ - وجـوب اشتغـال بعض المتخصصين بهذه الآيـات في الـواقـع بـاعتبـارها هـاديـة إلى حقيقة ما.

٣ - أن تفسر هذه الآيات مـن هؤلاء المتخصصين بعد دراستهم لها لأنهم الأقـدر على بيانها دون غيرهم.

---

(١) المراد بالتفسير العلمي : بيان معنى النص الكوني في القرآن بنتائج العلم التجريبي التي توافرت البراهين على صحتها.

(٢) الإنفطار (٦ : ٧ : ٨).

(٣) جواهر القرآن : ٢٥/ ٢٧ بتصرف.

وقد ذهب أ. د. محمد حسين الذهبي إلى أن دعـوى كل العلوم في القرآن – السابقة – تمثل البداية للتفسير العلمي [1] وقد تبعه في ذلك فهد بن عبد الرحمن [2].

ولا يخفي على من يشتغـل بالدراسات القرآنيـة أن هذه الدعوى فيها كثير مـن المبالغة لأن القرآن لم يأت جامعاً العلوم في ثناياه وإن هـدى إلى كثير من حقائق العلم ضمن هدايته العامة فضلاً عن كونها لوناً من ألوان إعجازه المتجدد بتجدد الزمن.

وقد رفض الشاطبي هذه الدعوى – كل العلوم في القرآن – ورد عليها [3] مع إعتبار رأيه هذا رفضاً للتفسير العلمي في رأي الدكتـور الذهبي وتأييده له [4]، إلا أن رأيه قـد عورض من أحد محققي الموافقات [5].

(التفســير العــلمي بين النظـرية والتطـبيق)

وإذا كانت الدعـوة إلى التفسير العلمي قد تمت على يد الغزالي، فإن الـرازي هو الذي قام بالتطبيق العملي لهذا اللون من التفسير، والذي أسرف فيه بصورة بالغة، ويمكن إلقاء الضوء على تفسيره للكونيات بما يلي :

أولاً: لم يقتصر الرازي على استخدام النظـريات العلمية في تفسير الآيات الكونيـة، بل إنه جعلها وسيلة إلى معرفـة الكثير من النصوص النظرية منذ ابتـدأ في التفسير، فعندما تناول قول تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : « اعلم أن الحمد إنما يكون حمداً على النعمة، والحمـد على النعمة لا يمكن إلا بعد معـرفة تلك النعمة. لكـن أقسام نعم الله خـارجة عن التجـديد والاحصاء كما قـال تعالى ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [6]، ولنتكلم في مثال واحد، وهو أن العاقل يجب أن يعتبر ذاته وذلك لأنه مـؤلف من نفس وبـدن، ولاشك أن أدون الجزءين وأقلهما فضيلة ومنفعـة هو البـدن، ثم إن أصحـاب التشريح وجـدوا قـريبا مـن خمسـة آلاف نوع مـن المنافـع والمصالح التي دبرها الله عز وجل بحكمتـه في تخليق بدن الانسان، ثم إن من وقف على هذه الأصناف المذكـورة في كتب التشريح عرف أن نسبة القـدر المعلوم المذكور

(1) التفسير والمفسرون : ٣/ ١٤٠ : ١٥٦.
(2) منهج المدرسة العقلية في التفسير : ١/ ٢٦١ : ٢٦٦.
(3) راجـع الموافقـات للشـاطبي : ٢/ ٦٤ : ٨٢ بتصرف.
(4) التفسـير والمفسـرون : ٣/ ١٥٧.
(5) هو الشيخ عبد الله دراز. الموافقات : ٣/ ٤٠٩ : ٤١٢.
(6) سـورة إبراهيـم من الآيـة (٣٤).

إلى مالا يعلم وما لم يذكر كالقطرة في البحر المحيط وعند هذا يظهر أن معرفة أقسام حكمة الرحمن في خلق الانسان تشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أكثر ثم إذا ضمت إلى هذه الجملة آثار حكم الله تعالى في تخليق العرش والكرسي وأطباق السموات وأجرام النيرات من الثوابت والسيارات ... ثم يضم إليها آثار حكم الله تعالى في تخليق الأمهات والمولّدات من الجمادات والنباتات والحيوانات وأصناف أقسامها وأحوالها علم أن هذا المجموع مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أو أقل ... وحينئذ يظهر أن قوله جل جلاله «الحمد لله» مشتمل على ألف مسألة أو أكثر أو أقل[1].

وعندما تناول قوله ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال : اعلم أن الرحمة عبارة عن التخليص من أنواع الآفات وعن ايصال الخيرات إلى أصحاب الحاجات، أما التخليص عن أقسام الآفات فلا يمكن معرفته إلا بعد معرفة أقسام الآفات وهي كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى ومن شاء أن يقف على قليل منها فليطالع كتب الطب حتى يقف عقله على أقسام الاسقام التي يمكن تولدها في كل واحد من الأعضاء والأجزاء ... فإنه إذا خاض في هذا الباب وجده بحراً لا ساحل له ... [2].

ثانياً : تحرر من كثير من الخرافات التي سيطرت على الفكر الاسلامي في مجال الكونيات بخاصة [3]، ولذلك فانه أصاب الحقيقة في بعض الأحيان نظراً لتأثره بنتائج الدراسات الحكمية، فعندما طرح سؤالاً عن حقيقة الرعد والبرق والصواعق أجاب عن ذلك بقوله :

الرعد : الصوت الذي يسمع من السحاب كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتقض وترتعد إذا أخذتها الريح فصوت عند ذلك ...

البرق : الذي يلمع من السحاب من برق الشيء بريقاً إذا لمع. (وهذا تعريف غير موفق).

الصاعقة : قصفة رعد ينقض منها شعلة من نار وهي نار لطيفة قوية لا تمر بشيء إلا أتت عليه إلا أنها مع قوتها سريعة الخمود [4].

---

(١) مفاتيح الغيب : ١ / ١٤.
(٢) مفاتيح الغيب : ١ / ١٥.
(٣) راجع الطبري في تفسيره للرعد والبرق، ق، ن « تك في صخرةً » وقد تأثر به معظم من بعده من المفسرين.
(٤) مفاتيح الغيب : ٢ / ٨٦ : ٨٨.

وعنـدما ذكـر المطر قـال : إنما تتولـد الأمطار مـن أبخرة تـرتفع مـن الأرض وتتصاعد إلى الطبقة الباردة من الهواء فتجتمع هناك بسبب البرد وتنزل بعد اجتماعها وذلك هو المطر [١].

ثالثاً : النظريات العلمية في زمنه كانت أكثـر من الحقائق وقد تأثر بها وحرص على أن يقيم الدليل لإثبات بعـض النظريات رغم معارضتها لبعـض النصوص التي صرحت - مـن بعيد - بعكـس هذه النظـريـات، ولعل الـرغبـة في البيان هـي التي دفعتـه إلى ذلك. فعلى سبيل المثـال حرص على أن يقيم الدليل على أن الأرض ثـابتة لا تتحرك وذلك في تفسيره لقول الحق سبحانه : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً** ﴾ [٢].

رابعاً : كان العدل عن الحقيقة إلى المجاز من سمات الرازي في بعض الأحيان، ففي حديثه عن السموات السبع نقل عن علماء الهيئة أن السموات السبع هي : القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشتري، زحل، ثم ذكر بـاقي النظريات المتعلقة بذلك - في زمنه - ونقدها، ثم ختم المبحث بقوله : « فان قال قائل : فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفي العدد الزائد؟ قلنا الحق إن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد ... » [٣].

خامساً : من المسلم به عدم ورود المصطلحـات العلمية الحديثة كالذرة والجاذبية الأرضية والمجرة ... الـخ، وإنما استخدم مـا تعورف عليه في زمنـه : الجوهر الفـرد، الفلك وقد كان لعدم اكتشاف بعض الحقائق العلميـة أثره في خطأ البيان في بعض الأحيان كما سبق في عدم إمكانية حركة الأرض حتى لا يسقط الإنسان من عليها ... وهذا ما ذهب إليه بطليموس وأرسطو وطاليس قبل الميلاد [٤].

سادساً : ينبغـي إعادة النظر في بعض النظـريات العلمية الواردة في هـذا التفسير حيث إن التقدم العلمي ودخول كثير من النظريات في دائرة التجربة الآن والانتهاء إلى عكس ما قيـل في ذلك الـزمن أو نقضـه يجعلنا نشير إلى الحقيقـة حتى لا تـؤثر على عقـول الناشئـة ممن يقف على هذا التفسير فضـلاً عما ينقله بعض مـؤلفي التفسير في العصر الحاضر عنـه يـدرك وجوب ذلـك، كما ينبغـي أن لا يتخـذ ذريعة لـرفـض التفسير

---

(١) مفاتيـــح الغـــيب : ٢/ ١٢١.
(٢) مفاتيـــح الغـــيب : ٢/ ١١٢ بتصـــرف.
(٣) مفاتيـــح الغـــيب : ٢/ ١٧٠ : ١٧٣ بتصـــرف.
(٤) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم ٥٠، وكان أرسطو ق. م بثلاثة قرون وأما بطليموس فكان بعد الميلاد ق : ٢.

العلمي للآيات الكونية كما ذهب إلى ذلك بعض المعاصرين [1] لأن ضوابط التفسير العلمي في آخر هذا البحث تخُرج بعض ما ورد فيه عن دائرة المنهج المرسوم للتفسير العلمي.

أضواء على تفسير الآيات الكونية منذ التدوين وحتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي

لقد تأثر جمهور المفسرين بما رواه الطبري مأثوراً في الكونيات وقلما كانت الإضافة في هذا الميدان بخاصة إذا ما استثنينا أفراداً معدودين في هذا الميدان. وقد اخترت لذلك نماذج تؤكد ما ذهبت إليه. منها قول الحق سبحانه ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ ... ﴾ البقرة (١٩).

ورد في الطبري حول الرعد ما يلي:

١ - هو ملك يزجر السحاب بصوته. وهو رأي مجاهد. وقيل بالتسبيح والتكبير وهو رأي ابن عباس.

٢ - ملك من الملائكة يسبح، ونسبه إلى أبي صالح.

٣ - ملك موكل بالسحاب يسوقه كما يسوق الحادي الإبل يسبح كلما خالفت سحابة سحابة صاح بها فإذا اشتد غضبه طارت النار من فيه فهي الصواعق التي رأيتم.

٤ - الرعد ملك من الملائكة اسمه الرعد وهو الذي تسمعون صوته - ابن عباس.

٥ - الرعد ملك وصوته هذا تسبيحه، فاذا اشتد زَجْره السحاب اضطرب السحاب واحتك فتخرج الصواعق من بينه - ابن عباس.

٦ - الرعد ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادي الإبل بحدائه - ابن عباس.

٧ - الرعد ملك في السحاب يجمع السحاب كما يجمع الراعي الإبل ... عن عكرمة.

٨ - الرعد خلق من خلق الله عز وجل سامع مطيع له - عن قتادة.

٩ - الرعد ملك يُؤمر بازجاء السحاب فيؤلف بينه فذلك الصوت تسبيحه ... عكرمة.

١٠ - الرعد ملك عن عليّ وابن أبي الخلد.

١١ - الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بالغنم ... ابن عباس.

---

(١) المنار: رشيد رضا: ١/ ٧.

١٢ - الرعد ريح تختفق تحت السحاب فتصاعد فيكون منه ذلك الصوت . نسبه إلى إبن أبي الخلد [١] .

وقد تأثر بهذه الآراء مع تفاوت في البسط أو الاختصار كل من : الثعالبي [٢] والطبرسي [٣] والبغوي[٤] والخازن [٥] وابن عطية [٦] وابن الجوزي أجمل الآراء[٧] والقرطبي [٨] وأبو حيان [٩] والجمل جعل البرق والرعد مترادفين لمعنى واحد[١٠] وصديق حسن خان [١١] .

وقد خالف الزمخشري [١٢] والرازي [١٣] وابن كثير [١٤] والنسفي [١٥] من سبق من المفسرين .

وحول البرق وردفي الطبري :

١ - البرق مخاريق الملائكة - الإمام علي . يزجرون بها السحاب - ابن عباس .

٢ - الرعد ملك والبرق ضربه السحاب بمخراق من حديد - الإمام علي .

٣ - البرق ماء قاله أبو الخلد وقيل هو مَصْع ملك - ونسبه لمجاهد .

٤ - البرق ملك له أربعة أوجه . وجه إنسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد ، فاذا مصع بأجنحته فذلك البرق ... محمد بن مسلم الطائفي .

٥ - في كتاب الله الملائكة حملة العرش لكل ملك منهم وجه إنسان ووجه أسد ، فاذا مصع بأجنحته فذلك البرق ... شعيب الجبائي .

وقد وفق الطبري بين رأي الإمام علي وابن عباس ومجاهد بتكلف [١٦] .

وقد قارب الطبري في ذلك كلُ من الثعالبي [١٧] والطبرسي [١٨] وزاد ذكره : أنه نار تنقدح من اصطكاك الأجرام ، وابن عطية وزاد قوله : والبرق ماء [١٩] ، وابن الجوزي[٢٠] ، والقرطبي [٢١] وأبو حيان ذكر الآراء السابقة ثم قال : «والذي يفهم من

---

(١) تفسير الطبري : ١ / ١١٤ - ١٢٣ .
(٢) جواهر الحسان : ١ / ٣٦ .
(٣) مجمع البيان : ١ / ٥٧ .
(٤) البغوي على هامش الخازن : ١/ ٣٠ .
(٥) الخازن : ١/ ٣٠ .
(٦) المحرر الوجيز : ١ / ١٩٠ : ١٩١ .
(٧) زاد المسير : ١ / ٤٣ : ٤٤ .
(٨) الجامع لأحكام القرآن : ١/ ١٨٧ .
(٩) البحر المحيط : ١/ ٨٣ .
(١٠) الجمل : ١ / ٢٤ .
(١١) فتح البيان : ١ / ٨٢ : ٨٣
(١٢) الكشاف : ١ / ٢١٥ .
(١٣) مفاتيح الغيب : ٢ / ٧٩ .
(١٤) تفسير القرآن العظيم : ١/ ٥٤ : ٥٧ .
(١٥) تفسير النسفي : ١ / ٢٦ : ٢٧ .
(١٦) ابن جرير الطبري : ١ / ١١٨ : ١١٩ .
(١٧) جواهر الحسان : ١/ ٣٧ .
(١٨) مجمع البيان : ١ / ٥٧ .
(١٩) المحرر الوجيز : ١/ ١٩١ .
(٢٠) زاد المسير : ١ : ٤٣ : ٤٤ .
(٢١) الجامع لأحكام القرآن : ١ : ١٨٧ .

اللغة أن الرعد عبارة عن هذا الصوت المزعج المسموع من جهة السماء وأن البرق هو الجرم اللطيف النوراني الذي يشاهد ولا يثبت »[1].

وقد خالف هؤلاء كل من : الزمخشري والفخر الرازي وابن كثير والنسفي[2]. ومن غرائب التفسير قول من قال : إن الله نسب الصيب إلى السماء ليرد على من قال : إن المطر هو نتيجة تصاعد أبخرة من الأرض تنعقد ثم تسقط[3].

الصواعق : جمع صاعقة وهي الصيحة الذي يموت من يسمعها أو يغشى عليه، وقيل قطعة من العذاب ينزلها الله على من يشاء[4].

* قصفة رعد تنقض معها شقة من نار. قالوا تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه وهي نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه وهي مع لطافتها سريعة الخمود[5].
* ذكر ابن الجوزي ما سبق وأضاف : إن الملك الذي يسوق السحاب إذا اشتد غضبه طار من فيه النار فهي الصواعق، وقيل نار تنقدح من اصطكاك أجرام السماء[6].
* الذي يلمع من السحاب من برق الشيء بريقاً إذا لمع[7].
* مخراق حديد بيد الملك يسوق به السحاب ... وعن ابن عباس وهو سوط من نور بيد الملك يزجر به السحاب، وعنه أيضاً البرق ملك يتراءى[8].

ومن خلال ما سبق ندرك مدى التفاوت بين آراء المفسرين والدراسات العلمية الحديثة. ومن يقف على آراء المفسرين عند قول الحق : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[9] وقوله ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾[10] الآيات ... و ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾[11] ... الخ يدرك أن ما ورد بكثير من التفاسير يتعذر قبوله الآن علمياً ورغم إعدادي لنماذج عدة إلا أن طبيعة البحث لا تسمح بالذكر هنا مفصلاً.

---

(١) البحر المحيط ١ / ٨٤.
(٢) راجع المهموشات رقم : ١٢، ١٣، ١٤، ١٥.
(٣) الخازن : ١ / : ٣٠ والرازي : ٢/ ٧٩ وفتح البيان : ١/ ٨٢ : ٨٣.
(٤) الخازن : ١/ ٣٠.
(٥) الكشاف : ١ / ٢١٥.
(٦) زاد المسير : ١ / ٤٤.
(٧) الفخر الرازي : ٢ / ٧٩.
(٨) الجامع لأحكام القرآن : ١/ ١٨٨.
(٩) سورة الأنبياء آية (٣٠) وأنظر الطبري : ١٧/ ١٣ : ١٧، والثعالبي : ٣/ ٥٢ ، ومجمع البيان : ٧/ ٤٥ والبغوي على هامش الخازن : ٤/ ٢٩٣ والكشاف ٢/ ٥٧٠، وزاد المسير ٥/ ٣٤٨، والقرطبي، ١١/ ٢٨٣، والرازي : ٢٢ : ١٦٢ : ١٦٣ والبحر المحيط : ٦/ ٣٠٧. وغيرهم.
(١٠) المؤمنون آية (١٣ : ١٤) وأنظر الطبري : ١٨/ ٨ ، والثعالبي ٣/ ٩٣، والخازن : ٣/ ٣٠٣، والبحر المحيط : ٦/ ٣٩٨، وزاد المسير : ٥/ ٤٦٤، والكشاف ٣/ ٢٧، والرازي : ٢٣ / ٨٥ وغيرهم.
(١١) سورة القيامة آية (٤) وانظر مظانها في كتب التفسير.

بواعث التفسير العلمي في العصر الحديث
(القرن التاسع عشر والعشرين)(١٣, ١٤هـ)

يمـــكن ايجـاز تلـك البواعــث فيمــا يــلي :-

١ - التقـدم العـلمي في مجـال الكونيـات في الغـرب .

٢ - تفـاوت الرؤيـة للإعجـاز القـرآني بتفـاوت الزمـن .

٣ - التعويض عن النقص في ميدان البحث العلمي في المجتمع الاسلامي .

٤ - الرغبـة في إصلاح بعض مـا دون في علم التفسير بخصوص الآيـات الكونية بخـاصة لمحاولة التخلص من بعض الخرافات في هذا الميدان .

٥ - اتخاذ العلم وسيلة لدراسة الكتب المقدسة في إطار الحركة النقدية لتلك الكتب .

ويمكـــن بـــيان ذلـــك فيمـــا يلـــي :

أولاً : التقـدم العـلمي في مجـال الكونيـات في الغـرب :

فمع مطلع القرن الخامس عشر الميلادي وحتى يومنا هذا نما البحـث العلمي بصورة غير متـوقعة، وقـد أكسب التقـدم العلمي دول الغـرب قوة لم تعهـد من قبـل، ففرضـت سلطانها على العالم الاسلامي في نهاية القرن التـاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وبالتالي فـرضت ثقـافتهـا أو جزء منهـا، وقـد نتج عـن تلـك الحركة تيـارات عـدة في بلاد العـالم الاسلامي وإن تفاوتت قوة وضعفاً وكموناً وظهوراً ومنها :

١ - التيار الإلحادي : وقـد اعتمد اتباعـه على نتائج البحث العلمـي جاعلين إياهـا وسيلة للإلحاد .

٢ - التيار العلماني : وقـد حرص اتبـاعه على تقليـص دور الديـن في الواقـع بكل صـورة ممكنة .

٣ - السواد الأعظم مـن الناس الذين عـاشوا على موروثات الآبـاء، فَلاهُمْ مع الملحـدين لأن العقيـدة تحفظهـم، ولا مـع العلمانيين لأنهم ورثـوا كـذلــك أن الـديـن للـدنيـا والآخرة ... الخ .

٤ - الدعاة إلى الله : وقد رأوا أنفسهم مسئولين عن :

مـواجهة التيـار الأول وتصحيح المفـاهيـم للتيار الثـاني، وإبقـاء العامـة على سلامـة

المعتقد.
وإذا كان القرآن هو المصدر الأول للدعوة. لذا كان الباعث الثاني.

ثانياً : تفاوت الرؤية للاعجاز بتفاوت الزمن :

لا يخفي على أهل الدراسات الدينية ما ألف من كتب حول إعجاز القرآن وجوانب الإعجاز فيه هل بالصرفة أو بالنظم أو بالمعنى أو بهما أو ببلاغته أو بأخباره عن السابقين والقضايا المستقبلية ... الخ.

والحقيقة أن القرآن معجزة الرسول - عليه السلام - الباقية إلى قيام الساعة وهو معجز بكل ما سبق. وإن كانت الرغبة أو التخصص لدى بعض الكتاب والمؤلفين هي التي حملت الواحد منهم على أن يظهر جانباً من جوانب الاعجاز دون سواه وينتصر له. وإذا سلمنا بأن المعجزة لا تُلْزم إلا إذا توافرت أسبابها ثم عجز الخصم عن الاتيان بمثلها. فإن كثيرين من المعاصرين قدَ رأوا أن إعجاز القرآن في القرن العشرين هو إعجاز علمي وذلك بورود نصوص في القرآن قد تضمنت حقائق علمية لم يهتد إليها السابقون حين البيان، وما اتضح معناها إلا بعد النتائج العلمية الحديثة. وقد أخبر بتلك الحقائق نبي أمي منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، وقد نتج عن هذه الرؤية حيرة لدى المشتغلين بتلك الدراسات حيث كثرت الأسئلة : هل نقف عند الأساليب القديمة التي أثمرت فيما سبق ولكنها عقيمة الآن؟ هل تعرض القضايا العلمية في ضوء ما نسب إلى ابن عباس والسدي وكعب ووهب ابن منبه وغيرهم فنكون دعاة صد عن الاسلام بدلاً من دعاة إقناع ؟. هل يمكن أن نقول للناس إن إعجاز القرآن هو في تركيب الآية أو الآيات أو ترتيب السور في عصر البحث العلمي وفقدان التذوق اللغوي ... ومن هنا ظهر الانتصار للتفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن باعتباره اللون الظاهر للإعجاز في القرن العشرين للعرب وغير العرب وللمسلمين وغير المسلمين.

ثالثاً : كان لتخلف العالم الاسلامي قاطبة عن مسايرة الحركة العلمية دوره في دعاوى عدة منها : إن ما انتهى إليه الغرب قام على تراث الشرق المسلوب، إن بعض القضايا العلمية في الغرب قد أشار إليها القرآن، وقد حرص دعاة هذا الاتجاه على أن يردُّوا كل نظرية أو حقيقة علمية إلى نص من نصوص القرآن. وكم أخذت الآيات - على وجه السرعة -

كشاهدة لنظرية ما، وكم أتىَ بالتجربة كمبينة للنص سواء أروعيت المعايير المتبعة في التفسير أم لا ؟ وقد روج لذلكَ كثيراً رغم ما به من أخطاء.

رابعاً : رأى كثيرون أن معظم ما دون في علم التفسير - بخاصة المأثور منه - حيال الكونيات لا يمكن قبوله عقلاً الآن. ولا يخفى على أهل العلم ما كتب في تفسير الرعد، البرق، الصواعق، ق، ن، الصخرة في سورة لقمان، السموات السبع ... الخ، وقد أعرض هؤلاء عما كتبه السابقون إلى ما انتهت إليه الدراسات العلمية - كما أعرض الزمخشري والرازي سابقاً - رغبة في التحرير والتنوير وبعثاً للعقل والناشئة حتى لا يدوروا في فلك الأوهام ...

خامساً : لقد كان للكشوف العلمية الحديثة دورها الإيجابي والسلبي في ميدان الحركة النقدية للكتب المقدسة وقد اعتمد بعض الباحثين - ضمن ما اعتمد - على نتائج البحث العلمي لإثبات سلامة النص المقدس من عدمه، وقد انتهت تلك الدراسات إلا أنه لا توجد حقيقة علمية واحدة وردت في القرآن قد أبطلها العلم، وإن لم يتوافر ذلك لغيره من الكتب السماوية. وحسبنا ما كتبه موريس بوكاي، السير جيمس جينز، وحيد الدين خان وغيرهم.

(علماء المسلمين والتفسير العلمي)

وإذا كان هذا اللون من التفسير قد ظهر، وقد ولج بابه المتخصصون وغير المتخصصين وكثرت الكتابات فيه أكثر من غيره من ألوان التفسير التقليدية الأخرى في العصر الحديث، فان كثيرا من العلماء لم يسلم به، ومنهم من أفرط فيه ومنهم من توسط، وبذلك أصبحنا الآن أمام تيارات ثلاثة :

* **التيار الأول** : يقول أهله في القرآن كل شيء عن الكون، وكل ما يكتشف هو خادم لنص من النصوص الكونية وجعلوا ذلك من دلائل إعجاز القرآن الذي تختلف صوره باختلاف العصور وقد جانب هؤلاء الصواب حين التطبيق، لأنهم جمعوا بين كل نظرية وحقيقة علمية وبين أية من أي القرآن كما صرفوا الألفاظ عن مدلولاتها اللغوية. وكان عملهم إلى الموسوعات أقرب منه إلى التفسير.

ويمثل هذا الاتجاه بلا منازع : الشيخ الطنطاوي جوهري وتبعه آخرون .

* **التيار الثاني** : يقول أهله القرآن غايته الهداية والإعجاز، وإعجازه لا يكون إلا من جنس ما عرف به زمن النزول، ويكفي أنه لا يعارض العلم بل وضع المنهج للراغبين ودعا إليه وكل كشف علمي لا يصادمه القرآن، وكان هدفهم صون القرآن الكريم عن تقلبات البحث العلمي مدعين أنه لا توجد حقائق علمية، بل كل النتائج نظريات معتمدين على كثير من المشاهدة، ولذلك فانهم رفضوا كل دعوى للتفسير العلمي للآيات الكونية مع أنهم حين التفسير - إن كان لهم أحياناً - لم يطبقوا ما دعوا إليه لوقوعهم تحت الثقافة العلمية السائدة، فتناولوا الكونيات في القرآن بنتائج العلم ولعل رفضهم كان باعثه الإسراف الذي رؤى في مفاتيح الغيب سابقاً، وتفسير الجواهر لاحقاً، ويمثل هذا الاتجاه : جمال الدين الأفغاني محمد عبده، رشيد رضا، الشيخ المراغي، الإمام الأكبر الشيخ شلتوت، سيد قطب ... وغيرهم .

* **التيار الثالث** : أهله معتدلون فلم يقولوا بأن كل شيء في القرآن مما أتى به العلم، ولم يرفضوا كل نتيجة تخدم النص. وإنما رأوا تفسير بعض الآيات الكونية بقيود وشروط وضعوها وإن لم تكن كافية بحسب إضافة بعضها إلى من نسبت إليه، ويمثل هذا التيار : عبد العزيز اسماعيل وحنفي أحمد، ومحمد أحمد الغمراوي، وموريس بوكاي ... الخ .

وإذا كانت طبيعة هذا البحث لا تسمح بالاستقصاء - هذا من ناحية - ومن ناحية أخرى تعذر هذا الأمر في فترة وجيزة من الزمن والتي أعد فيها البحث لأن لكل تيار أهله في بلاد العالم قاطبة، وهو أمر يحتاج إلى لجنة. لذلك رأيت لزاماً على أن أذكر نماذج تمثل كل تيار ثم أعقب على هذه الاتجاهات في النهاية بما أراه صواباً للعمل به عند التطبيق .

أولاً : المغالون في الدعوة للتفسير العلمي

من المسلمات أن القرآن ليس كتاباً في فن من الفنون، وإن بدا في بعض التفاسير كأنه منها كمن نحا بتفسيره ناحية لغوية بحتة أو فلسفية أو فقهية أو صوفية ... الخ وإذا كانت تلك الاتجاهات قد نقدت من المحدثين (١) فان بعض المعاصرين قد نحا في تفسيره ناحية

---

(١) أنظر الرافضون لهذا اللون من التفسير في هذا البحث .

علمية حتى إنه ليفهم من كتاباتـه أن القرآن كتاب في علم الطب أو الجغرافيا أو الطبيعة ... الخ وقد بلغ أصحاب هذا الاتجاه حداً من الكثرة، نذكر منهم :

١ - **الشيخ الطنطاوي جوهري في تفسيره (الجواهر)** : فقد غالى في تفسيره هـذا وضمنه علوماً ومعارف لا صلة لها بالنص أحياناً، كما يشير كثيراً إلى اقتصاره على ذلك خشية الملـل، وهو يـرى أن الفهم السـابق لآيـات التشريـع قد مكنـت المسلمين من سيـادة العالم، ولا سيادة لهم في العصر الحديث إلا بفهم الكونيـات ومن أقواله : « لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آيـة ... وقل في علوم الكائنات التي لا تخلو منهـا سورة - وهذه دعوى غير مسلمـة - وهي تبلغ سبعمائة وخمسين آيـة، فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علـم آياته قليلة ويجهلـون علما آياته كثيرة، لنبرع الآن في علم الكائنات لترقى الأمة ... »[١].

كما أنـه يرى أن الحاجـة إلى دراسـة الآيات الكـونية أكثـر مـن الحاجة إلى علـوم الشريعة الآن وذلـك في قولـه : أو لا يرى علماء الإسلام أن علـوم الخلق مـن العوالم العلوية والسفلية غذاء، وأن علوم الشريعة - وهي الأحكام الفقهية التي صرفوا فيها أعمارهم - دواء، وكيـف يعيش الإنسان إلا بالغـذاء؟ وهو إذا تعاطى الـدواء وحده هلك . بل إن الغذاء هـو دائم الطلب، وأما الدواء فيكون عند انحـراف الصحة . فيا أيها المسلمون : اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الـدواء أي اطلبوا العلوم الكونية والعلوم الشرعية وجميعها يطلب القرآن وقد اعتنى بعلوم الغذاء أكثر من عنايته بعلوم الدواء، فما لي أراكم عما قدمه الله معرضين وعلى ما أخره الله عاكفين ... »[٢].

كما أنـه انتقد الفقهـاء والمتكلمين بـاسرافهـم في علميهم وتقصيرهـم في العلـوم الكونية فقـال : (ولا يزال الواحد منهما يتعب فيها ليـلاً ونهاراً في حفظه ودرسه وإذا روجع فيـه قال : اشتغلت به لأنـه علم الديـن وفرض كفاية ويلبـس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضـه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدم عليـه فرض العين، فكـم مـن بلدة ليـس فيهـا طبيـب إلا من أهـل الـذمة ولا تقبـل شهادتهم في أحكام الفقه ثم لا نرى أحدا يشتغل به ويتهاترون على علم الفقه ...

---

(١) تفسـير الجواهـر : ٢٥/ ٥٣.

(٢) تفسـير الجـواهر : ١/ ٩ بتصـرف.

هـل لهذا سبب إلا لأن الطـب ليس يتيسر الـوصول بـه إلى الأوقاف والـوصايـا وحيازه مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة ... [١]

وهو يصـف كتابه بقـوله : « بهذا الكتاب وأمثـاله سيستيقظ المسلمـون سريعاً، وسيجيء جيل لم تشهد الأرض مثله ... أيها المسلمون هَـذا هو علم التوحيد في الحقل والجبل والزرع والشجر والثمر والشمس والقمـر لا في الكتب المصنفة المشهورة، هي والله مبعدة عـن حكمة الله ومبعدة عن معـرفة آياتـه ... ثم ذكر بعض المطـولات التي ألفت في علم الكلام وبين أثرها السلبي - من وجهة نظره - على العقيدة [٢].

وخلاصة القول في هذا التفسير : إن هذا التفسير يعد موسوعة علمية فقد ضمنه المؤلـف مباحـث شتى في الطـب والهنـدسة والفلـك والتـاريخ والجغـرافيا والسحـر والتنـويـم المغنـاطيسي والجاذبيـة وعلـل التحريـم لم حـرِّم مـن وجهـة نظـر العلميين التجريبيين وكـذلك حكمـة التشريع كما تضمن بحـوثاً عـدة في الفلسفة عبر تـاريخها والحكم والأمثال والفنـون والمشاهد اليوميـة للمؤلف والمناظـرات والحوار والفتاوى حتى جعل بعض المعاصرين يرى أنه الأحق بالوصف « فيه كل شيء إلا التفسير»[٣].
كما أن كثيرين مـن المعاصرين كانـوا يوُرون ويعرِّضـون بهذا التفسير دون أن يفصحوا عن اسمه، ولعـل الجرأة التي تمتع بها المؤلف وقوة شخصيتـه - كما يبدو من كلامه - هما اللتـان منعتـا مـن المجاهـرة أو هــو أدب الاسـلام في الستر، وقـد امتـدح هـذا الاتجاه بتحفظ الاستـاذ حنفي أحمد قائلاً : أنه قـد أفاض فيه وأسهـب وبين كثيراً من العلوم المختلفة التي تشير إليهـا الآيات الكونية لولا أنه رحمه الله قـد زاد في هذا البيان حتى جاوز حدود المعـاني للآيات ولم يحاول الجمع بينها فخفي بـذلك كثير من حقيقة ومقـدار العلم المنـزل فيهـا، وعلى كل حـال فقد كـان رحمه الله مـن المجتهديـن والله لايضيع أجر المحسنين [٤].

٢ - **عبد الـرحمن الكواكبـي** : في كتابـه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعبـاد». في هذا الكتاب نجـد المؤلف ينحـاز انحيازاًبليغـاً إلى هذا اللـون من ألـوان التفسير، فيصف القرآن بـأنه شمس العلـوم وكنز الحكـم ويقرر بأن السر في إحجـام العلماء عن تفسير

---

(١) تفسير الجواهر : ١ / ٢٨٨ بتصرف.
(٢) المرجع السابق : ١ / ٦٦ بتصرف.
(٣) التفسير والمفسرون : ٣/ ١٨٣.
(٤) التفسير العلمي للآيات الكونية ص ٧.

قسمى الآلاء والأخلاق من القرآن وبيان ما يشتمل عليه من العلوم المختلفة هو : «أنهم يخافون مخالفة رأى بعض السلف القاصرين في العلم فيكَفِّرُون فيقتلون » ثم يقول : « وهذه مسألة إعجاز القرآن وهي أهم مسألة في الدين لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث، واقتصروا على ما قاله بعض السلف أنها هي فصاحته وبلاغته وإخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون ... ثم يقول « إنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز » . وقد نقل عنه الدكتور الذهبي الكثير مما ذكره في كتابه فليراجع من شاء المزيد إلا أنه يلاحظ أنه - أي الكواكبي - لم يضع قيداً ولا شرطاً على هذا الاتجاه »[1] .

٣ - د/ **محمد جمال الدين الفندي** : في كتابه الله والكون : بعد أن بين أثر علماء المسلمين في العلوم التجريبية حرص على أن يفسر بعض الآيات القرآنية المتعلقة بـ : الرياح السحاب، المطر، طبقات السماء، أسس بعض العلوم في ضوء المعارف العلمية الحديثة إلا أنه عدل عن الحقيقة إلى المجاز في كثير من الأحيان، ولم يراع قواعد التفسير المعمول بها عند المفسرين وردّ كثيراً من السنة مما لم يره مقبولاً - من وجهة نظره - والكتاب بحاجة إلى مراجعة .

٤ - **الأستاذ علي عبد العظيم** : في كتابه « في ملكوت السموات » والذي صدر عن مجمع البحوث الإسلامية، حيث يرى أن ذلك لون من الإعجاز القرآني . وقد جانب الصواب حين التطبيق على بعض الآيات .

٥ - د/ **عبد العزيز اسماعيل** : في كتابه « الاسلام والطب الحديث » وقد حرص على ألا تفسر الآيات إلا بالحقائق دون النظريات، وقد انتقده الدكتور الذهبي بشدة

٦ - **الأستاذ عبد الرازق نوفل** : في كتابه « بين الدين والعلم، والسماء وأهل السماء وغيرهما وكذلك في الكثير من مقالاته ولكنه من أحرص الناس على الاستشهاد لأي نظرية بنص قرآني أو تفسير الآية بالنظريات العلمية .

٧ - د/ **مصطفى محمود** : في كتابه « القرآن محاولة لفهم عصري »، كما شارك هؤلاء كل من :

---

(١) التفسير والمفسرون : ٣/ ١٦٤ : ١٦٧ بتصرف .

٨ - **محمود شكري الألوسي** : في كتابه « مادل عليه القرآن مما يعضده الهيئة الجديدة القويمة البرهان » .

٩ - **د/ عبد الحليم كامل ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾** .

١٠ - **محمد رشاد خليفة** « الإعجاز العددي في رقم ١٩ » .

تعقيب على هذا الإتجاه : يغلب على أصحاب هذا الاتجاه الإفراط وقلة التحرى والخروج عن كون المراد البيان إلى كونه أبحاثاً شاملة في موضوعها ، وكم أخَذت الآية شاهداً للنظرية العلمية ، وكم فسرت بالنظريات ، ولذلك انتقد هذا الاتجاه كَثير من المعاصرين منهم : الشيخ محمد عبده ، ورشيد رضا والشيخ شلتوت والأستاذ سيد قطب والشيخ المراغي وغيرهم .

ثانياً : الرافضون لهذا اللون من التفسير

رأي بعض العلماء رد هذا اللون من التفسير لأسباب عدة منها :

١ - أنه لم يعرف عن الرسول ولا الصحابة والتابعين فضلاً عن كونه اتهاماً لهم بالقصور .

٢ - أن النظريات العلمية متقلبة وبذلك نعرض القرآن للتقلب .

٣ - أن الكونيات في القرآن وسيلة هداية للإنسان لا مباحث علمية فيه .

٤ - أن في هذا اللون من التفسير صارفاً عن الغاية التي نزل من أجلها القرآن .

٥ - أن فيه تكلف من ناحية اللغة وخروج عن البلاغة وفتحا لباب الشك في المعتقد على أثر تقلب البحث العلمي .

٦ - يخاطب القرآن النفوس بينما يخاطب العلم العقول ، فكانت الأهداف في القرآن نفسية وجدانية مطيتها التأمل المتدين ، بينما لا تهدف العلوم إلى شيء من ذلك [(١)] .

وممن يمثل هذا التيار :

---

(١) التفسير العلمي للقرآن الكريم صـ ٣٨ .

١ - **الامام محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا** : فقد عابا كل صور الاسراف في التفسير وبخاصة تفسير الفخر الرازي، ثم ذكرا : « وقلده - أي الاسراف - بعض المعاصرين فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً مطولة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن » [١].

وفي موطن آخر : « أما حقيقة البرق والرعد والصاعقة فليس من مباحث القرآن لأنه من علم الطبيعة وحوادث الجو التي في استطاعة الناس معرفتها ولا تتوقف على الوحي وغايتها صرف العقل إلى البحث الذي يَقْوى به الفهم. والدين والعلم بالكون يقوى ويضعف في الناس ويختلف باختلاف الزمان ... ومع هذا فقد أشارا إلى بعض صور التفسير العلمي للرعد والصواعق والكهرباء وعقب على ذلك بالقول : «ولا مجال في تفسير القرآن للتطويل في أمثال هذه المسائل الطبيعية لأنها تطلب من فنونها الخاصة بها» [٢].

٢ - **الشيخ محمد المراغي** : شيخ الأزهر سابقا - وقد نسب إليه الشيخ محمد الصادق عرجون رفضه لهذا اللون من التفسير حتى يتجنب القرآن التعرض للهزات التي استحدثها العلم الحديث، ونقل عنه من مقال كتبه «غرور المسلمين بالعقل والفلسفة» قوله : «ووجد مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ببعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها وفي ذلك خطر عظيم على الكتاب ... فالنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله [٣].

٣ - **الشيخ محمد الصادق عرجون** : من أشد الناس رفضاً لهذا اللون، وقد انتقد الامام محمد عبده لتأثره بهذا اللون، ورد على الشيخ المراغي تفسير (الرتق والفتق) بالنظريات الحديثة، كذلك انتقد تفسير الجواهر والفخر الرازي وهو يرى أن الآيات الكونية هادية للعقل تحث على الطلب الجاد للعلم [٤].

٤ - **د/ محمد حسين الذهبي** : من أشد الناس رفضاً لهذا اللون، وهو يرى مخالفته لقواعد اللغة ودلالة الكلمات وبلاغة القرآن والتأثير السلبي على العقيدة كما أنه يرى أن

---

(١) المنار : ١ / ٧. (٢) المنار : ١ / ١٧٦ : ١٧٧.
(٣) القرآن الكريم / هدايته وإعجازه صـ ٢٣٥ صـ ٢٣٦ بتصرف. (٤) القرآن الكريم / هدايته وإعجازه من ص ٢٦٩ : صـ ٢٧٢ بتصرف.

الآيات الكونية هادية للبحث ورياضة وجدانات الناس، ويكفي أن القرآن لا يصادم حقيقة علمية كما أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جد ويجد من نظريات وقوانين علمية[1].

٥ - **محمد عزة دروزة** : عاب على القدماء الظن والتخمين عند تفسيرهم الكونيات، وانتقد اللاحقين لأجل ذلك اللون من التفسير وقد فصل القول في هذا ومنه (ومحاولة استخراج النظريات العلمية والفنية في حقائق الكون ونواميسه وأطواره... مما يخرج بالقرآن عن نطاق قدسيته من الوعظ والإرشاد ولفت النظر وبث الهيبة والاستشعار بعظمة الله ... إلى مجال البحث وتعريضه لطبيعة هذا المجال من الجدل والتفاسير والتعارض والأخذ والرد على غير طائل ولا ضرورة... كما أن ترك ذلك يجعل المسلم غير مقيد بنظريات كونية معينة يوهم أنها مستندة إلى القرآن... وتبقيه حراً طليقاً في مساحات العلوم والفنون ونظرياتها وتطوراتها [2].

٦ - **الشيخ مناع القطان** : رفض الغلو في هذا اللون من التفسير حيث قال : « والذين يفسرون القرآن الكريم بما يطابق مسائل العلم ويحرصون على أن يستخرجوا منه كل مسألة تظهر في أفق الحياة العلمي يسيئون إلى القرآن من حيث يحسنون صنعا - لأن هذه المسائل التي تخضع لسنة التقدم تتبدل، وقد تتقوض من أساسها وتبطل - وبذلك نعرض تفسير القرآن للنقائض كلما تبدلت القواعد العلمية أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم أو يقين يبطل التخمين... وإعجاز القرآن ليس في اشتماله على النظريات التي تتجدد وتتبدل بل في حثه على التفكير، وقد ذكر بعض الآيات الداعية إليه وتبعها بقوله « وهكذا فان إعجاز القرآن العلمي في أنه يحث المسلمين على التفكير ويفتح لهم أبواب المعرفة ويدعوهم لولوجها » [3].

٧ - **وهناك آخرون يرفضون هذا اللون منهم** : الشيخ شلتوت، الشيخ أمين الخولي [4] والدكتور محمد كامل حسين في كتابه « الذكر الحكيم » والدكتور محمد أركون في كتابه «مفهوم العلم في القرآن» والدكتور / عاطف أحمد في كتابه « نقد الفهم العصري للقرآن» ، د/ بنت الشاطىء في كتابها « القرآن والتفسير العصري » والدكتور أحمد

---

(١) التفسير والمفسرون : ٣/ ١٥٧ : ١٦١ بتصرف. (٢) القرآن المجيد من ص ١٩٠ : ١٩٢، من ص ٢٤٢ : ٢٥١ بتصرف.
(٣) مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان صـ ٢٧٠ : ٢٧٣ بتصرف. (٤) التفسير والمفسرون : ٣/ ١٨٤ : ١٨٥.

الشرباصي في « قصة التفسير »[1].

(تعقيب على هذا الاتجاه)

إن سوء الظن بهذا الفريق ومن على شاكلته غير جائز لأنهم يهدفون إلى صون القرآن عن تقلبات العلوم، كما أن هذا الاتجاه - من وجهة نظرهم - يعرض النصوص لتقلبات العلم والاعتقاد للخلل، فضلاً عن أنهم يرونه صارفاً عن غاية القرآن من النزول - الهداية والإعجاز - وقد دفعهم إلى هذا أكثر ما رأوه قديماً مدوناً في تفسير الفخر الرازي من تفسير يتعلق بالآيات الكونية في ضوء علم الفلك والهيئة في ذلك الوقت، وقد خالفته النتائج العلمية الحديثة، كذلك ما ورد في تفسير الجواهر حيث خرج مؤلفه بما كتبه فيه عن كونه كتاب تفسير إلى كونه كتاباً في عجائب الخلق وإظهار الحكمة في تكوين المخلوقات.

واتجاه الرفض المطلق-من وجهة نظري-غير مقبول ويمكن الرد عليه من طريقين هما:

* **الطريق الأول : عام** (يشمل كل أفراد هذا الاتجاه وذلك على النحو التالي :

١ - إن في الرفض مصادمة صريحة للآيات التي أمرنا فيها بتدبر القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[2]. ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[3] وتدبر كل آية يكون بحسب محتواها وما يتصل بها من موضوعها وإلا لكان التدبر على غير وجهه، ولا يتأتى بحال أن يكون مراد المشرع قصر التدبر على التراكيب والاعجاز وحكمة ربط الآيات ببعضها وتناسب السور مع بعضها واستخدام حرف بدلاً من حرف ... فقط.

٢ - أن أهل الاختصاص هم أقدر الناس على البيان في دائرة تخصصهم عملاً بنص القرآن الكريم ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4] ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[5] فكل طلب لبيان معنى الآيات الكونية من غير المتخصصين فيها يكون دون مراد الشرع من البيان كما أن الاخبار يكون إلى الظن والتخمين أقرب منه إلى الحقيقة واليقين.

---

(١) التفسير العلمي للقرآن بين النظريات والتطبيق د/ هند شلبي من صـ ٢٧ : صـ ٣٨ بتصرف.
(٢) سورة محمد آية (٢٤). (٣) النساء آية (٨٢).
(٤) الأنبياء من الآية (٧). (٥) فاطر من الآية (١٤).

٣ - أن الخوف الـذي دفعهم إلى الـرفـض مصدره التقلبـات التـي تتعـرض لها النظريـات العلمية ودرء ذلـك ميسر إذا اقتصرنا على بيان معنى الآيـة بحقائق العلم لا بنظريـاته وعن طريق لجان لا أفراد.

٤ - إن دعـوى قصر القرآن على الـوعـظ والخطـابة والارشـاد مـردوده، ومـا عرف عـن المسلمين الأول مثل ذلك والا ما ظهرت علوم وفنون يعجز الانسان عن حصرها هي نتاج تدبر النص القرآني ولا صلة لها بالوعظ والإرشاد.

٥ - لا يتأتى رفض لون من المعرفة لأن فـلاناً أخطأ فيه حين التطبيق. ولا يجوز جعل الخطأ وسيلة لرد لون من التفسير الناس أحوج ما يكـونون إليه الآن باعتباره مظهراً لإعجاز القرآن في هذا القرن.

* **الطريق الثـاني : خاص** وهو يتناول الرد على بعض الأشخاص الـذين سبق ذكرهم إما عن طريق تناقضهم أو تفنيد مزاعمهم :

أولاً : الامام محمد عبده وتلميـذه رشيد رضا : يبدو أن رفضهم كان للغلـو في ذلك اللون مـع أنهما لم يتخليا عنـه حين البيان. فلقـد أشارا إلى كـون الحقائق العلميـة لونـاً من ألـوان الإعجـاز في القـرآن [١] وعنـدما تنـاولا قـول الحق سبحانـه ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ البقرة (١٦٤)، فسراها تفسيراً علمياً موجزاً ثم أحالا راغب البيان على كتب الاختصاص [٢] وعندما تناولا مضار الخمر والميسر اعتمدا على أقوال الأطباء في ذلك مـن حيـث تـأثير نسيج الجسـم ومـرض الكبـد والكلى وتـأثيرهـا على اللسـان والمعـدة والأمعاء [٣].

ثانياً : الشيخ محمـد الصادق عرجون : رغم تحامله على اتجاه التفسير العلمـي، إلا أنه قد ذكر عنواناً مستقـلاً هو (الجانب الكوني في القرآن لم يفسر) صرح فيه بـأن الآيات الكونية بحاجـة ماسـة إلى إعادة النظر للتفسير والبيـان بأسلـوب علمي يبرز عن طـريق مـلاحظة الظواهر الكونية حجة الله على خلقه ويكشف عما في الآيات من أسرار ناط الله بها كثيراً من منافعنـا ومصالحنا في الـدين والدنيـا بشرط أن لا تُخْضِع القـرآن لنظريات لاتـزال في مهب التجارب وقـد تعصف بها فتصبح من قبيـل الأساطير فنقول إنها تفسير لآيـات القرآن كما

---

(١) تفسـير المنـار : ١ / ٢٠٧.

(٢) المنـار : ٢ / ٥٨، ٦٠، ٦٤.

(٣) المنار : ٢ / ٣٢٥ : ٣٢٨، ٢ / ٣٣٣ : ٣٣٥.

صنع ذلك بعض المتحمسين وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبي ... والقرآن تفسره الحقائق والبراهين التي يحققها البحث العلمي المستند إلى الأصول الاسلامية وقضايا العقول المستقيمة ... [1]

ثالثاً : د/ **محمد حسين الذهبي** : يمكن الرد على الوجوه التي أستند إليها بما يلي :

١ - أن اللفظ في القرآن - في إطار التركيب اللغوي - صالح لأكثر من معنى أو لمعنى ما بحسب الإضافة كما أن التفاسير نمت بنمو الزمن وهي معتمدة في البدء والنهاية على النص القرآني، ولا يخفى على المفسرين تفاوت مدلول كلمة « لواقح » بتفاوت الزمن. وكذلك كلمة « حافظ » من قول الحق ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [2] بل إن الفهم في ضوء البحث العلمي ألصق بالمعنى من الفهم في ضوء اللغة وحدها [3].

٢ - المراد تفسير الآيات الكونية بنتائج العلم اليقينية ولا ندعى أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين وذلك لا يصادم بلاغة القرآن لأن الآيات وردت بتراكيب لا تصادم العقل عبر الزمن بل ان ورودها بهذه الصيغ هو في غاية البلاغة .

٣ - دعوى أن النص القرآني غايته الهداية في الاعتقاد ... نقول إن المعرفة الناتجة عن التجربة أثْبَتْ وأقوى تأثيراً في تأكيد الايمان فمراتب العلم كما ذكرها العلماء هي - علم اليقين - عين اليقين [4] - حق اليقين - أي المعرفة على أثر السماع أو الأخبار أو المعرفة على أثر التجربة أو المعرفة العليا (العلم اللدني) وقد رأينا ابراهيم عليه السلام يطلب الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين بدليل أنه لم يقل (رب أرني هل تحيى الموتى) بل قال : ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ [5]، ثم بين علة الطلب قائلاً ﴿ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

ثالثاً : الداعـــون إلى هذا التفسير بشـروط

رأينا فيما سبق من دعا إلى ذلك اللون بلا قيد ولا شرط ومن رفض بلا تمييز بين النظرية والحقيقة العلمية والغلو في كل الأمور غير محمود، وهناك تيار ثالث قد دعا إلى التفسير العلمي وأهله ينقسمون إلى فريقين :

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين صـ ٢٧٤ : ٢٧٥ بتصرف .

(٢) سورة الطارق آية (٤).

(٣) راجع الاسلام في عصر العلم د/ الغمراوي.

(٤) راجع كتب التفسير سورة التكاثر .

(٥) سورة البقرة من الآية (٢٦٠).

الأول منهما : يرى التفسير العلمي لوناً من ألوان إعجاز القرآن في العصر الحاضر مع وضعهم شروطاً وقيوداً لابد منها حين التطبيق دون أن يكون لهم تطبيق يذكر .

ثانيهما : يتفق مع الأول ويختلفون في وجود نماذج لهم للتفسير العلمي . ومن علماء الفريق الأول :

١ - **مصطفى الرافعي** : في كتابه (إعجاز القرآن) دعا إلى هذا اللون وحث عليه ، وهو يرى أن الآيات الكونية في القرآن تحتوى على إعجاز داخل إعجاز ، ويرى أن الزمن متجه في سيره إلى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل وأن الانسانية ذاهبة في أرقى عصورها إلى هذا المذهب ، وأن الدين سيكون عقلياً وأن العقل هو آخر أنبياء الأرض ووجود ذلك في القرآن قبل أن يوجد في الواقع بأربعة عشر قرناً شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهة . فإذا أسفر الصبح - أي تقدم البحث العلمي بما يخدم التفسير - وبقى بعض الناس نياماً لا يرونه وقد ملأ الدنيا فذلك من عمى النوم في أعينهم [1] وقد أثنى الرافعي على كتاب الأستاذ / أحمد مختار غازي المسمى بـ (سرائر القرآن) لكون المؤلف تناول فيه سبعين آية من آيات الفلك في القرآن علمياً . ثم نقل عنه قوله (إن هذه المخترعات والمستحدثات وما أدت إليه من أدلة ونظريات قد جاءتنا ببراهين جديدة على إعجاز القرآن الذي ندين الله عليه فقرت بذلك أعين المسلمين ، وسيرجع الفلكيون موحدين إذا علموا أن الأسرار العلمية التي يحسبونها جديدة هي في القرآن كما ظهر لهم ... [2] .

٢ - **الشيخ عبد العظيم الزرقاني** : في كتابه « مناهل العرفان » عقد فصلاً لهذا اللون من التفسير وبين الباعث عليه وقد اشترط لذلك شروطاً منها :

أ - أن لا تطغى تلك المباحث عن المقصود الأول من القرآن وهو الهداية والإعجاز ، وذلك حتى لا يكون التفسير أشبه بكتب العلوم والفنون منه بكتب التفسير .

ب- أن يلاحظ في امتزاج التفسير بتلك العلوم ما يلائم العصر ويوائم الوسط لأن تلك الأبحاث الكونية والأدبية قد تكون ضرورية ومفيدة أيما فائدة إذا شرح بها القرآن في عصر من عصور الثقافة أو لجمهور من المفتونين بالمادة وعلوم الكون .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي : صـ١٤٦ .
(٢) المرجع السابق صـ١٤٨ .

جـ- أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة ويلفتهم إلى جلال القرآن ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذي سخره الله لنا (١).

د - ينبغي ألا نقطع برأي فيما يعرض له القرآن من الكونيات إلا إذا كان لنا عليه دليل وبرهان لاشك فيه ولا نكران وإلا وجب أن نتوقف عن هذه التفاصيل ونكل علمها إلى العليم الخبير (٢).

وقد انتقد الزرقاني المسرفين في هذا اللون من التفسير بخاصة غير المتثبتين، لأن العجلة في النقل للفروض العلمية تؤدي إلى الاضطراب في التفسير فيُحَمَّل ما لا يحتمل (٣).

٣ - **الشيخ محمد أبو زهرة** : في كتابه (المعجزة الكبرى) وتحت عنوان (علوم الكون والانسان في القرآن) بعد أن ذكر مقدمة عن الآيات الكونية في القرآن قال : (ونعتقد أن الذين درسوا علوم الكون في السموات والأرض وما بينهما لو تتبعوا آيات القرآن التي تعرضت لذكر الكون لوجدوا حقائق كثيرة مما وصل إليه العلم الحديث قد تعرض لها القرآن بالإشارة الواضحة ... وقد رأينا كثيرين من العلماء المخلصين المحققين قد تعرضوا لهذا فمنهم من بينّ طبقات الأرض ومنهم من بين غير ذلك.

ونحن نرحب ببيانهم ولكن لابد من ملاحظتين :

* **الملاحظة الأولى** : أنهم يحاولون أن يحملوا القرآن نظرياتهم وعليهم أن يفهموه كما تبين ألفاظه وكما تومىء إشاراته، وذلك لأنهم أحياناً يحملون القرآن ما لا يحتمل ويرهقون ألفاظه بالتأويل وأحياناً يأتون بنظريات لم تكّن قد حررت بعد من الشك والنظر وقد تتغير ولا يصح أن يبقى القرآن تتردد معانيه باختلاف النظريات، بل إن الواجب أن ندرس ما في القرآن على أنه حقائق فما وافق من العلوم قبلناه ...

* **الملاحظة الثانية** : أن ندرس الكون في القرآن على أنه حقائق ثابتة هي مواضع التسليم من المؤمن بالله تعالى وبالقرآن، فلا تجعل حقائقه موضع نظر، بل إن الايمان بالقرآن يوجب الايمان بكل ما اشتمل عليه، ولا يصح لنا أن نترك ظاهر القرآن ونتجه إلى تأويله إلا أن يكون الظاهر يقبل التأويل وتكون حقائق العلم

(١) مناهل العرفان : ٥٦٩ : ٥٧٠ بتصرف.
(٢) المرجع السابق : ٢ / ٢٥٤ بتصرف.
(٣) المرجع السابق : ٢ / ٢٤٩ : ٢٥٣ بتصرف.

الثابتة تقتضي الأخذ بالتأويل الذي يحتمله القرآن من غير تعسف ولا خروج بالألفاظ إلى غير معانيها ...[1].

٤ - **الشيخ محمد متولي الشعراوي** : نسب إليه في كتاب « معجزة القرآن جـ٢» أنه قال تحت عنوان «كل عصر له عطاء» الحق سبحانه قد ترك في القرآن أشياء لوثبات العقول في العلم، حتى إذا استطاعت العقول أن تكشف شيئاً في الكون وجدت خيطاً يربط بين آيات الله في الكون ... وبين آيات الله في القرآن الكريم، واكتشفت - أي العقول - أن الأسرار الكونية التي وصلت إليها ليست علماً جديداً ولكنه علم وضعه الله في الأرض ساعة الخلق ثم بعد ذلك كشف للعقول البشرية بعد ألوف السنين ... ثم بين كيف كان الإعجاز في الماضي قائماً على التراكيب والنظم وهو الآن قائم على عطاء العلم بما يوضح النص ويخدمه ولا يصادمه[2].

* **ومن علماء الفريق الثاني** :

١ - **الشيخ نديم الجسر في كتابه النفيس** : (قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن) وفي الشق الثاني منه تحت عنوان (كلمات ربي) أبى أن يكون المراد من قول الحق ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ علماء الشريعة إذا اقتصرت معرفتهم على فقه الأحكام لأن الخشية الكاملة لا تتأتى إلا للعارف بالعلوم الكونية[3].

وقد وضع منهجاً للتفسير العلمي من وجهه نظره، كما أنه يرى أن التفسير العلمي للآيات الكونية من دلائل إعجاز القرآن في العصر الحاضر وذلك في قوله فاعجاز البلاغة والفصاحة إنما يدركه العرب والقرآن خطاب للناس كافة، وإلى هذا الضرب من الإعجاز - أي العلمي - أشار العليم الحكيم بقوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[4].

وقد أراهم سبحانه بعد عصور وعصور آياته في الآفاق كما وعدهم، وألف الغرب في ذلك المطولات[5].

---

(١) المعجزة الكبرى - القرآن - الإمام محمد أبو زهرة صـ٥١٩ : ٥٤١ بتصرف.
(٢) معجزة القرآن : الجزء الثاني الشيخ محمد متولي الشعراوي صـ١٤٩ : صـ١٥٢.
(٣) قصة الايمان صـ٢٤٢.
(٤) فصلت من الآية ٥٣.
(٥) قصة الإيمان صـ٢٤٣.

وقـد تناول في كتـابه بيـان مظاهـر الخلق والتصـوير والعلـم والقدرة والحكمـة والاتقـان والتقدير والاتزان في خلق السموات والأرض كما تناول الأرض والشمس والقمـر والكواكـب والنجـوم والليل والنهـار والـريـاح والأمطار والجبـال والأنهار والبحـار والنبات والحيـوان والانسـان في خلقه الأول والثـاني ... كـل ذلك في ضـوء البحث العلمي [1].

٢ - **الأستاذ حنفـي أحمد** : في كتابه « التفسير العلمي للآيـات الكونية » بين أن السبب في عدم الاقبال على هذا اللون من التفسير ما يلي :

أ - وراثـة الفكرة السـائدة «أن القـرآن رسـالة هـدايـة لا شـأن لها بأصـول العلـوم الكونية» .

ب- أن القـرآن لايحتوى على دقـائق أو تفـاصيل عـن طبـائع الكـائنات تتطلـب علماً خاصاً .

جـ- ورود الآيات مفرقة في ثنايا السور على غير نظم التأليف في البحث العلمي [2] .

وقـد تناول في كتـابه خمسـة قضايـا أصلية - كما يـرى - هي قضيـة الخلق العـام للسمـــوات والأرض، والخلق الخاص بالأرض التي يسكنها الناس، وخلق النبات والحيوان، وخلق الإنسان وحوادث فناء العالم بقيام الساعة [3] .

كما أنه يرى الكونيات في القرآن من الآيات التي هي بحاجة إلى بيان لأنه لم يتوافر للسابقين بيـانها لعدم تقدم البحـث العلمي . ولذلـك لجأوا إلى التأويل أو الاستعـانة بالشائعـات من العلم الظني عن الكون المادي ممـا لم يثبت بالدليل القـاطع، وما رواه بعض العلماء المتـأثريـن بالاسرائيليـات [4] ... وقد ختـم هذا الفصـل بقولـه : « إن للآيـات الكونية معـاني ظاهرة عـامة وأخرى دقيقـة خاصة . وإن الشخـص يستطيع بفكره أن يستجلى المعاني الأولى وأما الثانية فلا يصل إلى سرها إلا من أوتى حظاً وافراً من العلم بأسرار الموجودات [5] .

---

(١) قصـة الإيمـان صـ٢٤٤ : ٤٥١ .

(٢) قصـة الإيمـان صـ٦ ، ٧ بتصرف .

(٣) المرجـع السـابق صـ٩ .

(٤) المرجـع السـابق صـ٣٦ .

(٥) المرجـع السـابق صـ٤١ .

٣ - د/ **محمد أحمد الغمراوي** : دعا إلى الانتفاع بنتائج العلم في تفسير الآيات الكونية في القرآن بشروط منها.

أ - أن يعلم الباحث أن القرآن مقصده الهداية والإعجاز، وليس موسوعة علمية في فن من الفنون دون سائرها وهو باشارته إنما يعطى اللفتة إلى حقيقة من الحقائق التي يجب دراستها...

ب- عدم العدول عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي للفظ فيحمل على المجاز وإن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصلية البسيطة قد أدى إلى كثير من الخطأ في التفسير [١].

كما أنه لا يرى الخطأ في التفسير - حين يقع - مانعاً من التفسير العلمي. لأن الخطأ في هذه الحالة لا يكون على النص بل على المفسر كما أن العصمة غير مشروطة في المفسر [٢]. وقد تناول السماء والجبال والظواهر الجوية في كتابه (الاسلام في عصر العلم...) بالبيان في ضوء العلم الحديث.

٤ - **وحيد الدين خان** : في كتابه (الاسلام يتحدى) وهو يرى أن الآيات الكونية من دليل إعجاز القرآن في القرن العشرين (... أن من المدهش حقاً أن القرآن لا يحتوى كلمة ما أثبت العلم فيها بعد أنها من صنع رجل جاهل بذلك الموضوع وهذا يوضح صراحة أنه كلام موجود فوق الطبيعة وهو على معرفة تامة بكل شيء...) [٣].

وقد عالج بعض القضايا الكونية في كتابه لاقامة الدليل على إعجاز القرآن.

٥ - **موريس بوكاي** : في كتابه « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة » وقد كان للآيات الكونية في القرآن وعدم معارضتها من قبل البحث العلمي أثرها في إسلامه.

وقد ذكر قوله (كيف أمكن لمحمد عليه السلام أن يتناول قبل أربعة عشر قرناً حقائق علمية لم يكتشفها إلا التقدم العلمي في القرون الحديثة لو لم يكن القرآن وحياً منزلاً لا شك فيه ولا ارتياب في نصوصه. وهذا يدل على أن نصوص القرآن نصوص لا دخل ليد البشر فيها وأنها وحي لا شك فيه [٤].

---

(١) الاسلام في عصر العلم : صـ٢٥٩ بتصرف.
(٢) الاسلام في عصر العلم صـ٣٠٩.
(٣) الاسلام يتحدى : صـ١٩٥ بتصرف.
(٤) المرجع السابق صـ٢٧٧ : صـ٢٨٣.

وقـد وضـع قـواعـد وشروطـاً لهذا اللـون مـن التفسير . وتحامـل على مفسرى الكونيات بالمعرفة النظرية . وبخاصة في عصر النهضة .

وقـد تناول في كتـابه هـذا بعض القضـايا بـالبيان وخطـأ السابقين في تفسيرهـم النظري لتلـك الآيات الكـونية وبخاصـة أطوار خلق الانسـان في بطن أمـه - بحكم تخصصه كطبيـب نساء - وبعض المحـرمات في الشريعة الاسـلامية وبعض الظـواهر الكونية ...

وهؤلاء ليسوا وحدهم في هذا الميدان بل إن بعض المفسرين المعاصرين قد تناول كثيراً من الجوانب العلميـة الكونية في القرآن بنتـائج البحث العلمي مثل الشيـخ سيد قطب في تفسير « في ظـلال القرآن » والشيـخ أحمد مصطفى المراغـي في كتابـه « تفسير المراغي » والألوسي في كتـابه « روح المعاني » وإن كان متـأثراً فيه بالفخـر الرازي أكثر من نقله عن الـدراسات الحديثة ، كما ظهرت مؤلفات أكثـر من أن تحصر وهي تخضع من حيث التصنيف إلى الإتجاهـات الثلاثة السابقة ، ولا يمكن إضـافة كتاب « مفتاح دار السعادة » لابـن القيم إلى هـذا اللون مـن التفسير وان اعتمده البعـض لأنه يجمـع الآيات ثم يتحدث عنها بأسلوب خطابي عاطفي أكثر منه عقلي .

ومـن شاء تحقيـق ذلـك فليراجعه ، وكتـاب (تفسير الآيات الكـونيـة) كذلـك للدكتور عبد الله شحاته لأنه اكتفى بعـرض الآيات مع التعليق عليها بأسلوب وعظي موجز .



(قواعد ينبغي مراعاتها حين التفسير العلمي)

واذا كانت النفس تميل إلى مثل هذا اللون من التفسير في زمننا هذا، فانه لابد من وضع قواعد لمن أراد التصدى لهذا اللون يراعى فيها :

أو لاً : الالتزام بالشروط التي ذكرها « المؤيدون بشروط » في هذا البحث .

ثانياً : أن لا تفسر آية كونية في القرآن إلا من طريقين :

الطريق الأول : المتخصصون في الدراسات الطبيعية (الكونية) .

الطريق الثاني : المتخصصون في الدراسات التفسيرية .

ثالثاً : أن لا يفسر من طريق العلم الا ما يخضع للتجربة مع استبعاد كل نص لا يخضع مضمونه للبحث العلمي لمضى الزمن ككيفية الحمل بعيسى وكون مريم خنثى [1] أو لعجز العلم عن استيفاء البحث كالسموات السبع والأرضين السبع [2]... الخ .

رابعاً : ترك التكلف والتأويل حين التفسير كمن ادعى ظهور الطيران زمن سليمان مستشهداً بالآية ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ﴾ [3] سبأ «١٢»، والإشارة إلى الإذاعة في الآيات ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ... ﴾ [4] المرسلات « ٣ : ٤ » .

خامساً : أن لا يتوسع في تفسير الآية إلى الحد الذي يخرجه عن كونه تفسيراً إلى كونه بحثاً علمياً في موضوع ما [5] .

سادساً : أن لايفصل بين الآية وبين الآيات وثيقة الصلة بها في موضوعها .

سابعاً : كل معنى تحتمله الكلمة أو الآية لغوياً فلا ضير من الانتفاع به تفسيراً .

---

(١) دروس سنن الكائنات . د/ محمد توفيق صدقي ط مطبعة المنار سنة ١٣٣٣ هـ نقلاً عن فكرة إعجاز القرآن صـ ٢٢١ .

(٢) بمثل ما كتب على عبد العظيم في « في ملكوت السموات » (ود/ الفندي في « الله والكون »).

(٣) راجع القرآن : ينبوع العلوم والعرفان . على فكري . ط السلفية . مصر ١٩٥ هـ .

(٤) القرآن ينبوع العرفان، علي فكري . نقلاً عن فكرة إعجاز القرآن صـ ٢٣١ .

(٥) بمثل ما كتب الشيخ طنطاوي جوهري في « جواهر القرآن » وغيره من المعاصرين .

ثامـــناً : الايمان بأن الكـونيـات في القرآن حقـائق لا تتعارض مـع الكـون المنظور . وكـل تعارض يظهر هو نتاج قصور البحث العلمي أو تضييق معنى النص .

تاسعاً : انتفاء الـرهبة من تراث المسلمين في هذا المجال إذا ما صـادم نتائج البحث العلمي لأنه ليس بمقدس بل هو فكر قابل للقبول والرد .

عاشراً : أن لا تفسر الآيات إلا بيقينيات العلم دون النظريات أو الفروض .



■ نتائج البحث ■

١ - إن التفسير العلمي للآيات الكونية أصبح لوناً واقعاً من ألوان التفسير. وعدم وضع قواعد وضوابط له قد فتح الباب على مصراعيه ليلج فيه من هو أهل له ومن ليس له بأهل.

٢ - إن الحرص على رد هذا اللون من التفسير لعدم وروده زمن النبوة والصحابة باطل لأن معظم ألوان التفسير تمت بعدهم بسنين وماعُرِف الكثير منها عنهم.

٣ - إن القرآن ليس كتاباً في علم من العلوم وإن تضمن حقائق علمية في بعض العلوم.

٤ - إن الآيات الكونية في القرآن هادية بظاهرها داعية إلى البحث بمدلولها.

٥ - إن كثيرين يرون بعض الآيات لوناً من ألوان الإعجاز القرآني حيث أخبر نبي أمي بحقائق علمية لم تنقض بعد أربعة عشر قرناً فأكثر.

٦ - إن هذا اللون يضرب بأصله إلى القرن الخامس الهجري (النصف الثاني) ونما في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

٧ - إن خلطاً قد وقع عند الباحثين في التمييز بين التفسير العلمي وبين دعوى كل العلوم في القرآن مما دعاهم إلى المزج بين الأمرين مثل د/ الذهبي وتأثر به مَنْ بعده.

٨ - إن هذا اللون من التفسير ألصق بالمعنى من غيره. بمثل ما فسرت كلمة (لواقح) (نسوّي بنانه) علمياً.

٩ - ينبغي التسليم بعدم انتهاء التفسير عند فترة زمنية ما. وما لا يتأتى بيانه علمياً الآن سوف يكشف العلم عنه في الغد حين تيسر السبل.

١٠- ينبغي أن لا تؤخذ الآية لتأكيد نظرية ما وأن لا يحكم بنظرية أو حقيقة علمية على النص القرآني.

١١ - إن هذا اللون من التفسير يخدم المسلمين عامة وأقسام كلية الشريعة بخاصة. فهو من سبل تقوية العقيدة في نفوس المسلمين ولا يخفى على واحد منا الأثر المحمود للكتب

التي ألفت في هذا اللون حديثاً وهو خادم لقسم التفسير باعتباره إضافة إلى التراث التفسيري مصححاً بعض المأثور حيال الكونيات كما أنه دليل مسايرة العصر وهو ما كان عليه المفسرون السابقون.

كما أنه خادم لقسم الشريعة حيث تُصدَّر الكتب بحكمة المشرع من ناحية الحل أو الحرمة ولا يخفى على واحد منا أثر تلك الدراسات في بيان حكمة تحريم الخمر - الخنزير - الدم. وتحسم الخلاف في بعض القضايا كمنازل القمر وقضية الصوم بين الفقهاء والفلكيين، ولما كانت سائر الأقسام تعمل من أجل الدعوة الاسلامية. وكان الدعاة مقتطفي ثمار الفكر مميزين بين غثه وسمينه محسنين تقديم تلك الثمار إلى العقول. كان ذلك اللون خادماً للدعاة كذلك.

١٢ - ينبغي أن تتوجه جهود المختصين في علم التفسير بخاصة إلى تنقيته وتنقيحه مما علق به حتى لا يكون عوناً لأعداء الاسلام على الطعن فيه - غير مفرقين بين الاسلام والفكر الإسلامي - وذلك عن طريق التهميش حين إعادة الطبع سواء في ذلك الاسرائيليات أم الكونيات.

والله الموفق،،،

